جدارية الحلّاج العجيبة

الذي يرى لا يموت

علّة النوم:

الشاعرة والروائية أحلام بشارات

تشغلني دوما فكرة أين يريح المرء رأسه في النهاية، أي أرض يختار؟ ويقلقني التحكم في المصائر خارج زمانها، بعد زوال صاحبها، لذلك أول ما قلته في نفسي بعد قراءتي لـ" جدارية الحلاج العجيبة" من كتابة رنا عناني، ورسوم محمد معطي: أوه، لقد أراح هذا العمل رأس الحلاج في مكان غير ضريحه، صحيح دون أن يُسأل، فلم يحلم به أحد يقول: نعم، أردت أن يكون رأسي هناك، لكن لقد حدث ما حدث، أن يجد الرأس خفته في مكانه، فيتملك القارئ، مع تقليب صفحات القصة، ذلك اليقين، الذي تملكني أيضا، بأن الحلم حقيقة، وأنّ الحلم ليس حلم الكاتبة من الأساس، بل حلم الحلاج نفسه، فالكاتبة كانت الطريق، عبر قصة كتبتها، لتمرير حلم الحلاج نفسه، وعبور هذا الفنان المختلف فيه؛ مرفرفا ورأسه على كتف كائناته، فهل، يا أطفال، من مكان آخر قد يعيش فيه رجل ظريف، بلحية كثيفة، وشعر أبيض طويل، قد يبدو مخيفا، لكن ابتسامته لطيفة، في غير الجدارية التي رسمها بيديه" ارتجالات الحياة"، بجانب كائناته العجيبة، وحيواناته الغريبة؟!

ثم ما هو العالم الذي لو فكرت أن فنانا كالحلاج سيعيش فيه راضيا، ليس بالموافقة، بل بالحكم النهائي، الذي لا رجعة فيه، متنقلا في حياته من يافا إلى اللد إلى مصر ثم بين دمشق وبيروت، بين الرسم بالزيت، والحفر على الخشب، والعمل على الخزف والسيراميك، في الرسم والتصوير والغرافيك، آخذا برموز الحضارة

المصرية والكنعانية، ومنوعا عليها، غير عالم الأحلام؟ فتكون حياته ورحيله أحلاما في أحلام، وكذلك كائناته العجيبة: من الديك، والرجل بوجه العصفور، والرجل برأس البندقية، والحصان الجامح بالشعر المموج مع الريح، والجدي الغاضب بالقرنين اللذين يلتفان حول أذنيه فيناطحان السماء، والأطفال الذين يركبون الأسماك في البحر، والأحصنة التي تسبح عكس الموج، كائنات غريبة وعجيبة، تتنقل معه، ويتنقل بها، لينقله حنينه الشخصي، ونزعته الفردية، داخل قصة وطنه وشعبه، فلا يكون ذلك إلا في الأحلام، وبذريعة علّة النوم التي فيها العافية.

"الذي يرى لا يموت"

في هذه القصة التي تؤرّخ لتجربة الحلاج الفريدة، يغط الفنان في النوم، ثم في الحلم، غير مرة، فهو من حلم إلى آخر، وفي أحلامه يرسم كائناته، فيعطيها صفات، ويمنحها حركات، ثم تبدأ هذه الكائنات، بعد اكتمالها مباشرة، بالحركة: تمشي، تركض، تصهل، تطير، وفي يوم بعد أن يصحومن نومه، وقبل أن يتفقد ما أعطاه النوم من أحلام، وماذا حملت تلك الأحلام في بطنها، يستيقظ على ضجيج هذه الكائنات دون أن يجدها، ثم يبدأ رحلة البحث عنها، ثم الإمساك بها، كائنا كائنا، كل واحدة من هذه الكائنات في المكان الذي يحاول الاختباء فيه، أو الحركة التي يريد من خلالها أن يهرب إلى عالم آخر، غير عالم الحياة الذي خرج إليه، كل كائن، من حلم الفنان، وكأن رحلة هذه الكائنات بدأت برسم الفنان لها لكنها لم تنته عند هذا الحد، بدأت من أحلام الفنان ثم داخل الحياة نفسها، بعد أن أصبحت حقيقة بشكلها الغريب، وذلك بمحاولتها القفز من الحياة إلى الحياة، وكأن نافذة مرسم الفنان تؤدي إلى حياة أخرى، وكأن مرسمه رأس كبير لحلم مستمر بلا انقطاع، وكأن هذه الكائنات العجيبة متشوقة لتجربة مثيرة أخرى، غير تجربة أن تتحول من رسومات صامتة إلى كائنات حية متحركة، بأشكالها الغريبة، وقدراتها العجيبة، فسرعان ما يلتقطها الفنان محاولا إعادتها إلى كنفه، فيضعها في كنزته فيبدو منتفخ البطن، فتنضاف صفة جديدة، لم تسبغها الكاتبة على الفنان في الوصف الذي قدمته له في صفحة القصة الأولى، فهذه الصفة صفة طارئة، عندما ينتفخ بطنه بكائناته: الديك والحصان والرجلان برأسيهما الغريبين والأسماك والطيور، ثم نكتشف أن هناك بابا سريا يُدخِل عبره الفنان هذه الكائنات إلى جدرايته، التي فقد حياته وهو يحاول إنقاذها في حريق شب بمرسمه عام 2002 في 17 من كانون الأول، لتصبح جزءا من قصة أو حلم أو حكاية خيالية.

لكنّ صوتا سرعان ما يأتي من داخل الجدارية ينادي الفنان، فكائنات الحلاج ليست أقل ذكاء منه، ولا أقل حرصا على أن تقضي حياتها الصامتة بجواره، فما إن يفتح الباب السري ليجيب الصوت الذي ناداه، حتى ينسحب داخل الجدارية، وهنا بالضبط يبدأ الفنان دورا جديدا من حياته، آخذا المسار نفسه لحياة كائناته، التي امتدت رحلتها من الحلم إلى الحياة إلى الرغبة بتجريب الحياة داخل الحياة ثم إلى جدراية الفنان، فحياة الفنان بدأت، أيضا، من غفوته وأحلامه داخلها وعبر كائناته وهي تكتمل: تمشي وتركض وتصهل وتطير، ثم ينتهي به وبها المطاف في الجدارية، ومن هناك، بجوارها، يأخذ بمراقبة لوحاته بعينيه الواسعتين، فيرى عالم الخيال الذي كان يراه في أحلامه.

إذن في جدارية" ارتجالات الحياة" يعيش مصطفى الحلاج مع الكائنات العجيبة والحيوانات الغريبة التي استقبلته فرحة، ورقصت حوله، هناك في هذه الجدارية العجيبة مازال يقيم مع كائناته، وينسج معها القصص التي لا تنتهي، كأن حياته أصبحت تمثيلا حقيقيا لإحدى مقولاته: الذي يرى بعين الجماعة واستمراريتها لا يموت أبدا.

الرحيل والاقامة:

في الإقامة السرية للحلاج داخل جداريته لم يفقد الطريق نحو الأرض المحتلة التي ظل يحلم بالعودة إليها، ويعبر عن حنينه ذاك في أعماله، في سياقات مختلفة، بل إن تلك البلاد عندما هوى من الباب السري للجدارية كانت، شأنها شأن الكائنات الأخرى، بانتظاره، إنها البلاد التي رأى نفسه ماشيا في طريق تهجيره منها، في حلمه، مع والديه، مع قليل من الماء، فظلت مخيلته تحتفظ بتفاصيل الطريق، وتفاصيل البلاد، فلم تسقط من أحلامه أبدا، وقد جاء حديث الكاتبة، عن تلك العلاقة التي ربطت الفنان ببلاده، متفقا مع طريقة تعبير الفنان عن حنينه إليها، بلغة خفيفة، لا تضع في وعاء الحب حجارة، فيصبح ثسميكا وثقيلا، بل تفتح له جناحين ليطير، شأن علاقة الفنان مع كائناته داخل لوحاته، بخفة الأسطورة وعمقها.

فكانت هذه القصة كإحدى القصص في مشروع سلسلة حكايات من الفن التشكيلي الفلسطيني، بهذه الخفة من خلال الرسومات حرة الحركة، بخفة يد الفنان محمد معطي، ومن كتابة رنا عناني التي حركت الكتابة من داخل عالم الجمال الذي راكمه الحلاج نفسه بكل الأشكال التي دقّ فوقها رموزه، لإعطاء تلك الأبعاد الأسطورية للحياة البشرية، بصوت مسموع لسير الإنسان في الغابات، وفي الصحاري، وفوق الجبال، وتحت المطر، ومن داخل العواصف، وبالبرق والرعد والجدب والعطش، فترى وتحس وتسمع كيف حدثت الحياة، ومازالت، منذ الأزل، وقد يبدو الأمر وهو يذهب في هذه الطريق الطويلة صعبا لأن يستريح لصالح الكتابة للأطفال واليافعين، لكنه في قصة" جدارية الحلاج العجيبة" حدث برشاقة متناهية، لا شك أنّ عالم الحلاج الغنيّ، القابض على الألم بظرافة، كان سببا مباشرا فيها، حتى ليبدو هذا الكتاب كتابة مضاعفة على رسوم مصطفى الحلاج وواحدا من أحلامه، وبابا مفتوحا بضلفتيه على مخيلته الواسعة.